

أحمد بن يوسف التيفاشي

حياته وأثاره

أ. إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر

توطئة:

إنه يجدر بنا نحن الجزائريون أن نهتم بمعالم ماضيها التاريخي، وإبراز جهود علمائنا أكثر من أي أمة أخرى، ذلك أننا عبر مراحل التاريخ أعطينا الكثير. وساهمنا في بناء حضارات متعاقبة ماديًا وفكريًا، فقد أسهم أجدادنا في تطوير حضارات البحر المتوسط بتطوير الزراعة، والصناعة، وإقامة المحطات التجارية لتسهيل التبادل التجاري الدولي. كما ساهمنا فكريًا وأدبيًا في هذه الحضارات بعطاءات خالدة أبرزها عطاءات القديس أو غسطين، وابن معطي صاحب الألفية، والونشريسي صاحب المعيار وغيرهم والذين يعد إنتاجهم اليوم ضمن نتاجات عباقرة العالم على مر العصور.

وأحمد بن يوسف التيفاشي الذي سنترجم له هنا هو أحد هؤلاء العباقرة المعروفين عالميًا، والمجهولون وطنيًا ومحليًا. والذي أنجبته بلدة تيفاش التي تربض اليوم في صمت في سفح جبل شامخ على ركام من الذكريات التاريخية بناحية سوق أهراس إحدى ولاية الجزائر الحدودية تنتظر من يزيح عنها غبار السنين العجاف لتعود إلى الواجهة كما كانت في غابر الأزمان وبيض الأيام.

مولده ونشأته

التيفاشي هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج بن ميمون بن سليمان بن سعد القيسي الإمام العلامة شرف الدين التيفاشي⁽¹⁾، وفي دائرة المعارف الإسلامية: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف⁽²⁾. وقيل صباح الدين⁽³⁾. ولد ببلدة تيفاش كما يقول ابن فرحون سنة 580هـ/ 1184م.

قضى أحمد بن يوسف التيفاشي فترة صباه الأولى بين مسقط رأسه تيفاش وقفصة حيث كان والده يشتغل قاضيا بها. ويبدو أنه قضى المرحلة الأولى من تعليمه بالكتاب في تيفاش التي عادة ما تنتهي حوالي سن التاسعة أو العاشرة. أما المرحلة الثانية - الثانوية والعالية - فيبدو أنه بدأها في قفصة أين كان والده يشتغل فتنلمذ على أبي العباس - وقيل العياش - أحمد بن أبي بكر بن جعفر المقدسي فبرع في الأدب وعلوم الأوائل⁽⁴⁾.

أنتقل بعد ذلك إلى القاهرة وهو صغير السن حيث درس بها على يد العلامة موفق الدين عبد اللطيف أبي يوسف البغدادي. ومن القاهرة انتقل إلى دمشق. واشتغل بها على يد العلامة تاج الدين الكندي. ولا تعرف المدة التي قضاها في هذه الرحلة العلمية الدراسية. والمعروف أنه عاد من دمشق بعد ذلك إلى بلده⁽⁵⁾ ليتولى منصب القضاء فيها للدولة الحشوية. ولكنه لم يلبث طويلا فترك المنصب ورحل إلى المشرق فنزل مصر ثم الشام، وقام أثناء نزوله بالشام برحلات زار خلالها أرمينية. والعراق. وفارس. ويرى بعض المحققين والباحثين أن الهدف من هذه

(1) ابن فرحون قاضي القضاة إبراهيم المالكي: كتاب الدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - (القاهرة 1329/1911) مطبعة السعادة، 74.

(2) ريسكا j. ruska: التيفاشي. دائرة المعارف الإسلامية (معربة، بيروت) دار المعرفة 129/6

(3) سركيس يوسف الياس، معجم المطبوعات العربية، (بيروت 1928) المطبوعات العربية، 651/1

(4) ابن فرحون: الدياج، 74، سركيس، معجم المطبوعات العربية 1

(5) في الواقع المصادر لم توضح معنى بلده هل هو مسقط رأسه تيفاش أو مكان شغل والده قفصة؟

أحمد بن يوسف التيفاشي.....أ.إسماعيل سامعي

الرحلات هو تقصي معادن الأحجار والجواهر وزيارة مناجمها، والتعرف على مصادرها، واستقر أخيراً بالقاهرة حيث عكف على تأليف كتبه، وتوفي التيفاشي بها عام 651هـ/1253م، وقد ناهز السبعين من عمره، ودفن في مقبرة باب النصر التي كان قد دفن بها ابن خلدون، وابن هشام النحوي وغيرهما من العلماء الأعلام الأجلاء.(1)

بلدة تيفاش مسقط رأس التيفاشي:

تقع بلدة تيفاش الأثرية في الإقليم الثالث الجزء الثاني حسب تقسيمات الجغرافيين العرب القدامى (2) في مفترق الطرق شمال جنوب، وشرق غرب، قرب وادي الخميس ووادي تيفاش، واسمها القديم الروماني تيباسا في ولاية نوميديا وكان بها كرسي أسقف (3)، وهي ذات موقع استراتيجي يقول عنها ابن حوقل: "إنها مدينة أولية قديمة عليها سور قديم من الحجر والجير وبها عين ماء جارئة، ولهم من الأجنة، والبساتين ما يقوتهم وعليها شعراء (أشجار) كبيرة" (4)، ويضيف البكري أنها تسمى تيفاش الظالة، وتقع في سفح جبل، وفيها آثار لأول كثيرة (5)، وحدد الإدريسي بعدها عن الأربس بمرحلة، وأضاف أن بها بساتين ورياضات، وأن أكثر غلاتها الشعير (6). ولم يصف صاحب معجم البلدان شيئاً عما قدمه هؤلاء الجغرافيين (7).

وكانت تيفاش في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مركزاً متقدماً للدعوة الشيعية الفاطمية بالمغرب، وعمالة تضم على ما يبدو مناطق سوق أهراس وقالة. وفي بداية القرن العاشر

(1) ابن فرحون، الدياج، 273.

(2) الإدريسي: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق ونقد حاج صادق طبع د.م. ج الجزائر 1983 ص-ص. 135-159

(3) البستاني بطرس: دائرة المعارف دار المعرفة لبنان 293/6.

(4) البكري أبو عبيد: المغرب في ذكرى بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، (بغداد) مكتبة المثنى، 53.

(5) الإدريسي، المصدر السابق ص، 159.

(6) الحموي ياقوت: معجم البلدان ج: 2. (بيروت، 1984/1404) دار بيروت للطباعة والنشر ص: 66.

(7) القاضي النعمان: الفتاح الدعوة، تحقيق فروحات الدشراوي، (الجزائر 1983) طبع د.م. ج، 211.

الهجري / السادس عشر الميلادي خربت تيفاش بفعل عاملين هاميين هما: الفتن والحروب.

وهجمات الأعراب⁽¹⁾، ثم قام بتخريبها المولى محمد حاكم تونس سنة 913هـ/1507م

الوضع السياسي الذي عاش فيه التيفاشي:

إن الوضع السياسي الذي عاش فيه مترجمنا أحمد بن يوسف التيفاشي كان يتميز بضعف وحدة المسلمين، وانحيار الخلافات الإسلامية الثلاث الأموية بالأندلس، والفاطمية بمصر، والعباسية في العراق. وظهور الكيانات المستقلة، إضافة إلى الهجمات الأجنبية المتمثلة في الغزو الصليبي من الغرب، والغزو المغولي من الشرق.

ففي غرب العالم الإسلامي تعرض إلى ضربة قاسية في معركة حصن العقاب بالأندلس سنة 609هـ/1212م - التي تعتبر بداية انهيار الموحدين - هذه الموقعة التي تعتبر إنذارا بنهاية قوة المسلمين بالأندلس والمغرب، وقد ترتب عن هذا السقوط قيام كيانات مستقلة في المغرب والأندلس. ففي شرقه أعتبر الحفصيون أنفسهم الورثة الشرعيين لدعوة ودولة الموحدين باعتبارهم أقربائهم من جهة، وينتسبون إلى قريش قبيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأقاموا دولتهم سنة 625هـ/1228م على هذا الأساس، وامتد نفوذها من طرابلس شرقا إلى سبتة غربا. وإلى سجلماسة جنوبا في عهد أبي زكرياء الحفصي (627-647هـ/1229-1249م)، كما قام بنو مرين دولة في المغرب الأقصى سنة 591هـ/1194م، وفي المغرب الأوسط أقام بنو زيان دولة سنة 633هـ/1235م، وفي الأندلس أقام بنو الأحمر في غرناطة الدعوة للحفصيين، وهو نفس السلوك الذي أتبعه بنو مرين في المغرب الأقصى الشيء الذي قوى شرعية الحفصيين أين ولد وترعرع التيفاشي.

(1)JEAN LEON L' AFRICAINE M: description de l'Afrique Paris 1981 t :2. p: 371

وفي المشرق فبالإضافة إلى معاصرتة سقوط الفاطميين فإنه شهد انهيار الخلافة العباسية حيث توفي بسنوات قليلة قبل سقوطها عام 656هـ/1258م. وقيام دولة المماليك المستقلة نذكر منها دولة الأيوبيين بمصر سنة (569-664هـ/1178-1265م). والزيديين سنة 569-626هـ/1173-1228م).

إن الوضع السياسي كانت له انعكاسات سلبية على وحدة المسلمين من جهة، وكانت له في الوقت نفسه انعكاسات إيجابية حيث أدى إلى تنافس شديد بين حكام هذه الدول والممالك والإمارات قصد إثبات وجودها وقوتها وتفوقها فشجعت العلم والعلماء ووطورت التجارة رغم أن معظم سلاطين هذه الدول كانوا يسعون إلى ملء خزانهم بالأموال غير مبالين بضغط الحياة ومعيشة السكان. فكانوا يتباهون بكمية الرصيد الذي يكتزونونه في الخزائن من ذهب وفضة وأحجار كريمة لوقت الحاجة إليها إذا رجفت بهم راجفة من رواجف الحروب أو الفتن والثورات. وتفاعلا مع هذه المطالب، واستجابة لدواعي الشهرة والخطوة لمع نجم التيفاشي

الخبير في الأحجار إلى جانب مكانته كأديب قاض على المذهب المالكي⁽¹⁾

الوضع الثقافي والعلمي الذي عاش فيه التيفاشي:

يبدو أن التيفاشي كان واسع الثقافة والإطلاع تمكن من ذلك من خلال رحلاته وتنقلاته بين حواضر العالم الإسلامي ومناطقه يوم ذاك، وحيث عاش في عصر اتسم بالعظمة، واتساع دائرة المعارف والثقافة. واعتماد الدولة على رجال العلوم والفنون لرفع علمها وتدير شؤونها، وتوطيد نفوذها، ومن المعروف أن الشمال الأفريقي في هذا العصر قد شهد الهجرة الأندلسية بضغط من الصليبيين، كما هاجر علماء العراق إلى مصر والشام بضغط من المغول، فتفاعلت عقلية المغربيين والأندلسيين فأنتجت ثقافة وعلماء متطورين، كما شهد هذا العصر تيارات ثقافية متنوعة منها تيار التصوف الشرعي والبدعي، وفي علوم الدين وعلوم اللغة والتاريخ والحكمة والطب

(1) محمد يوفى حسن و محمود بسيوني خفاجي: مقدمة كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار لأحمد بن يوسف التيفاش. (القاهاة، 1977) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 11.

والفلسك وغيرها. فقد كان العصر عصر الحسن بن الشاذلي، وابن عربي، وابن دقيق. والعز بن عبد السلام: وعبد اللطيف البغدادي.

وفي هذا ألبجوا السياسي والاجتماعي والثقافي عاش التيفاشي فانعكست على شخصه هذه الأوضاع، فترجم ذلك في انتاجات فكرية وعلمية جد هامة، فقد أنتج في المجال الاقتصادي، وساهم في المجال السياسي بتولييه القضاء. وأنتج في المجال العلمي والثقافي، كما كان كاتباً ماهراً له من النثر الجيد، والشعر الحسن (1)، ومن أشعاره نورد المثال التالي من كتابه ظل الأسحار على الجئلار:

أما ترى الأرض في زلزالها عجباً	تدعو إلى طاعة الرحمن كل تقي
أضحت كوالدة خرقاء مرضعة	أولادها در ندى حافل غدق
قد مهدهم مهاداً غير مضطرب	وأفرشتهم فراشاً غير ما قلق
حتى إذا أبصرت بعض الذي كرهت	مما يشق على الأولاد من خلق
هزت بهم مهدهم تشأ تنهينهم	ثم استشاطت وآل الطبع للمخرق
فصكت المهد غضبي فهي لافظة	بعضاً على بعضهم من شدة البرق
ومن شعره قوله في ظهور الفجر وزوال الليل:	

نبيه نديمك إن الديك قد صخباً	والليل قوض من تخييمه الطنبا
والفجر في كبد الليل السقيم حكى	سر المتيم عن أجفانه غلباً

وقوله يقرض كتاب "المغرب في حلى المغرب" وقد أهدها إياه مؤلفه علي بن سعيد وأجاز له رواياته عنه:

سعد الغرب وازدهى الشرق عجباً وابتهاجاً بمغرب ابن سعيد

(1) سر كيس، معجم المطبوعات العربية، 1، ص، 651.

طلعت شمس من الغرب تجللا فأقامت قيامه التقعيد

لـم يدع للمؤرخين مقالا لا ولا للرواة بيت نشيد

ومن أمثلة نثره قوله من فصل عقده حول تطور الموسيقى في الأندلس منذ عصر الفتح حتى

عصره:

" كان غناء أهل الأندلس في القديم إما بطريقة النصارى . وأما بطريقة حدادة العرب ، ولم يكن عندهم قامون يعتمدون عليه ' إلى أن قامت الدولة الأموية ، وكانت مدة الحكم الرضي . فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية التونسية من يحسن صنعة التلاحين المدنية . وأخذها الناس عنهم . إلى أن وفد الإمام المقدم في هذا الشأن " علي بن نافع الملقب بزرياب " غلام إسحاق الموصلي على الأمير عبد الرحمن الأوسط فجاء بما لم تعهده الأسماع ، واتخذ السلطان طريقته ونسي غيرها " (1)

مؤلفاته:

خلف أحمد بن يوسف التيفاشي تراثا ضخما في موضوعات شتى . لكن عددا كبيرا من هذا التراث لم يحظ بالتسجيل ويبدو أنه لم يكن يعتني هو نفسه بحفظ مسوداته واهتمامه بها . وتدور موضوعات مؤلفاته في علوم البلدان ، والمعادن ، والطب . والمعرفة الجنسية كما له كتاب في البديع ، والتفسير . ولعلنى أكمل قائمة بمؤلفات التيفاشي تلك التي جاءت في " هدية العارفين " (2) وهي تضم عشرة كتب فيما يلي بيانها مضافا إليها ما أمكن الاطلاع عليه :

أ- المعادن :

1-1- أزهار الأفكار في جواهر الأحجار : يضم الكتاب خمسة وعشرون (25) فصلا يختصر كل فصل بدراسة معدن من المعادن يعالج فيه أصله ومعدنه (مكانه) وخواصه السحرية والطبيعية . واستخدامه وفوائده وقيمته التجارية وعيوبها ، وتوجد من الكتاب عدة مخطوطات جيدة . وقد

(1) ابن منصور عبد الوهاب ، أعلام المغرب العربي ، 4/ 137

(2) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين " أسماء المؤلفين وأثار المصنفين " طبعة استانبول 1951 ص : 94

أحمد بن يوسف التيفاشي.....أ.إسماعيل سامعي

طبعه الكونت رينر بشيا COUNT RAINERI BISCIA سنة 1818 مع ترجمة إيطالية في فلورنسا، كما طبع سنة 1906 (1)، وتوجد منه نسخ خطية في خزائن مختلفة، وفي دار الكتب المصرية نسخة نقلت بالفتوغراف عن نسخة أصلية بمكاتب القسطنطينية بتركيا تحت رقم طبيعيات تيمور 136 وعدد صفحاتها 186 صفحة (2).

2-2- الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء توجد نسخة منه في دار الكتب المصرية تحت رقم ميكرو فيلم 14888 وعدد أوراقها 44 ورقة أولها: " بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ثقتي ... " وبقية المقدمة هي تقريبا نفس مقدمة أزهار الأفكار وجواهر الأحجار .

3-3- خواص الأحجار ومنافعها. والكتاب الثاني والثالث يوجد واحد منهما مخطوطا بباريس (3)، ونسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم 349 ميكرو فيلم 12953، وأوله: " هذا كتاب يشتمل على خواص الأحجار ومنافعها ... " ويتكلم بعد ذلك على نفس الأحجار التي تكلم عنها سابقا مع إضافة المنافع .

4-4- المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة: وهو كتاب على المعادن والأحجار غير أن هذا الكتاب لم يرد ذكره في كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ولا في كتب الفهارس والتعريف بالتراث (4).

5-5- الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة: ويعد هذا الكتاب في حكم المفقود (5).

(1) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين ص: 94 - رسكا RUSK J.: التيفاشي - دائرة المعارف الإسلامية - دار المعرفة. بيروت م: 6. ص: 129 - الزركلي خير الدين: الأعـلام. دار العلم للملايين ط: 11 بيروت 1995 ج: 1. ص: 273- مقدمة أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ص: 12 (2) معجم المطبوعات العربية 651/1 (3) رسكا: التيفاشي: دائرة المعارف الإسلامية، 130/6 (4) مقدمة أزهار الأفكار في جواهر الأحجار. ص، 1 3 (5) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، (تونس 1992)، مكتبة المنار، ج، 2، ص، 458.

الطب:

6- 1- الشفاء في الطب عن المصطفى: وهو كتاب لم ترد عنه تفاصيل في كتب إحصاء مؤلفات التيفاشي، وتوجد منه مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية تحت رقم 515 ميكرو فيلم 20241 أو 10666 يضم حوالي 91 ورقة منسوخة بقلم شيخي حسن من القرن 9 هـ/ 14 م، وجاء في مقدمة المؤلف: " بسم الله الرحمن الرحيم: قال العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن يوسف التيفاشي اللهم يا من لطف حتى دق عن الأوهام، والظنون وجل حتى ظهر في كل حركة وسكون، وتفرد بالوحدانية التي لا تدركه العيون. والتأثر عن خليقته بعلمه المكنون المشتغل على علم ما كان وما هو كائن، وما سيكون اهدنا لعمل يقرب في دار القرار واحشرنا في زمرة أوليائك المصطفين الأخيار ويحول بيننا وبين عمل أهل النار وصلى اللهم على نبيك وخليتك محمد المختار (1)، ثم يبين الهدف من تأليفه وهو الحاجة الماسة إليه في وقته، ويشرح بعد ذلك منهج الكتاب وترتيب مواضعه جريا على ما كان شائعا عند الأطباء من قبله وفي عصره: ويوضح أن بالكتاب أحاديث غريبة حاول تصحيحها وتخريجها بأسانيدها ويقول عن ذلك: " وسميت هذا التخريج بالشفاء في الطب المسند عن المصطفى صلى الله عليه وسلم " ويمضي بعد ذلك في عرض فصول كتابه الذي يبدو أنه اعتمد فيه بالدرجة الأولى على ما ورد من أحاديث نبوية في الطب، والتي ورد الكثير منها في كتب الصحاح والسنن لاسيما صحيحي البخاري ومسلم (2)، ويتعرض في أبواب الكتاب لعظم الأمراض المعروفة في عصره، ويشخصها ثم يصف علاجها كل على حدى.

(1) مخ، 568 ميكرو فيلم 10666 دار الكتب المصرية.
(2) نفسه، ورقة 03 - فعلى سبيل المثال فإن مجموع الأحاديث النبوية الشريفة تحتوي على وصفات لعلاج بعض الأمراض وهي تؤلف كتابين من الجزء الرابع من صحيح البخاري يتألف الأول منها من 22 بابا تشمل 38 حديثا خاصة بعيادة المريض، والدعاء له، ويحتوي الثاني على 58 بابا تشمل 91 حديثا جاء فيه ذكر بعض العلل كالصداع، والرمد، والجذام، والحمى، واستطلاق البطن، والتهاب الرئة.

ب- الحياة الجنسية:

7-1- رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه: وهو كتاب في المعرفة الجنسية، ويبدو أن النسخ التي شاع تداولها قد أصابها تحريف خطير، وعميق وأساسي قام به بعض الشواذ والمنحرفين. والمغرضين قصد تشجيع الانحراف والشذوذ الجنسي من جهة، ومن ذوي الثقافة الضحلة والساذجة من جهة أخرى. وينسب هذا الكتاب أحياناً إلى كمال باشا أحمد بن سليمان المتوفى سنة 940هـ/ 1533م. وقد فند بعض المحققين هذه النسبة منهم صاحب كشف الظنون حيث يقول: "إن كمال باشا (ترجم) الكتاب بإشارة من السلطان سليم العثماني" (1)، وكلمة "ترجم" تقتضي إعادة النظر في نسبة الكتاب إليه، وتشير إلى احتمال نقل الكتاب إلى لغة غير العربية، ثم أعيدت ترجمته إليها. ومما يرجح نسبة الكتاب إلى التيفاشي تعليق لبروكلمان بأن مرجع أحمد ابن يوسف التيفاشي في هذا العمل كان كتاب: "العرس والعروس" للجاحظ (2). كذلك أثبت صارتون جورج في كتابه: "مقدمة في تاريخ العلم" نسبة الكتاب إلى التيفاشي، وكلا المؤرخين من الثقة المدققين (3).

8-2- قادمة الجناح في النكاح: وهو كتاب في معاشره النساء لم ترد تفاصيل عنه نسبه الحميري في "الروض المعطار" لمن اسمه عمر التيفاشي، والمظنون أن كلمة عمر مصحفة عن كلمة أحمد (4).

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون (ط:3. طهران 1387/1967) المطبعة الإسلامية ج 1، ص 838

(2) بروكلمان كلاً، تاريخ الأدب العربي ترجمة د/عبد الحليم النجار، (ط:3، مصر 1974) دار المعارف 215/3

(3) GERGE SARTON M: introduction (te) histiry of science 1931-1958 p: 156

(4) ابن منصور عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، 137/4

9 - 3 - كتاب الشهوات: مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم: 44 ميكرو فيلم رقم: 30825. والكتاب يبدو أنه موجود منه نسخ بعناوين مختلفة منه ربما كتاب: الباه: " ويشتمل على مقدمة توضح الهدف من وضع. وأجزائه وأبوابه.

10-4- نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب: وهو مبتور قال عنه حسن حسني عبد الوهاب أنه كتاب في المحاضرة والحكايات وأدب مجون؟ ولكن عبد القادر زمانه في مقالة له قال: " أبو العباس التيفاشي وكتابه أزهار الأفكار في جواهر الأحجار " قال عنه: " أطلعت أخيراً على مخطوطة تحمل عنوان: " نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب " لأبي العباس التيفاشي وموضوعها وصف الحياة الجنسية في محاسنها ومبازلها وصفا مدققا غريباً في بابيه ؟ والمخطوطة توجد في المكتبة العامة بالرباط تحت رقم 1533 (1). كذلك أشار صارتون إلى نسبة هذا الكتاب إلى التيفاشي (2)

11-5- رسالة فيما يحتاج إليه الرجال والنساء في استعمال الباه مما يضر وينفع: ليست لدي تفاصيل عنها.

إن التيفاشي في هذه الكتب الخمسة، - والتي لا ندري هل هي كتاب واحد غير عنوانه مرات أم هو خمسة كتب كما أثبتناها هنا ؟ - وضع الحجر الأساسي في التأسيس لعلم العلاقات الجنسية وما يترتب عليها من آثار نفسية واجتماعية، ونعتقد أن الذين قرءوا كتبه هذه قد أخذوا منها ما تهوى نفوسهم فأشاعوه دون دراسته ومحاولة فهم عمقه العلمي. و لم يتوقفوا عند

(1) السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (مصر 1804/1219) مطبعة إدارة الوطن سنة، ص 20، الزركلي خير الدين، الأعلام، (ط 11، بيروت، 1995) دار العلم للملايين، 273/1

(2) مقدمة أزهار الأفكار في جواهر الأحجار. 13.

أحمد بن يوسف التيفاشي.....أ.إسماعيل سامعي

هذا الحد بل راحوا يضيفون إليها من عندهم ما تأمرهم به نفوسهم الضعيفة والشهوانية حتى أخرجوا الكتاب عن غرضه وشوهوا طبيعته، وهو ما تنبه إليه العلماء والمحققون لكتبه.

ج-الجغرافيا:

12-1-سجع الهذيل في أخبار النيل: موسوعة في جغرافية النيل: يبدو مما أقتبسه السيوطي

في كتاب حسن المحاضرة (1) أنه مرجع هام في جغرافية حوض النيل وأحواله وفيضانه ومزروعاته، ويبين فيه أن الله لم يسم من أنهار العالم إلى نهر النيل فقال: " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين " (2)، ثم يقدم وصفا دقيقا عن نهر النيل وبلاد مصر، وما يسقيه، وأنواع المزروعات التي تزرع في حوضه، وأورد بعض الأقوال والأشعار التي قيلت في النيل منها ما قاله قيس بن معدى بن كرب فيما رواه الجاحظ في كتاب الأمصار (3):

ماء النيل أصبح زاخرا بمدوده وجرت له ريح الصبا فجرى بها

وقال بعضهم:

وأهل لهذا النيل أي عجيبة بكر يمثل حديثها لا يسمع

يلقى الثرى في العام وهو مسلم حتى إذا ما مل عاد يودع

ومن خلال هذه الاقتباسات يظهر الأسلوب العلمي للتيفاشي الذي أمتاز بتألقه في الوصف والقياس.

(1) ص ص 246 . 448 . 250.

(2) سورة القصص، 07

(3) السوطي جلال الدين، حسن المحاضرة، 2/ 209، 210 .

أحمد بن يوسف التيفاشي.....أ.إسماعيل سامي

13-2-سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: وهو كتاب في البلدان ولو أن محتواه لا ينم عن هذا الوصف (1).

14-3- كتاب المسالك وهو على ما يبدو هو كتاب البلدان نفسه أو كتاب سرور النفس.

ح- علم الأرصاد الجوية والفلك:

15-1- ظل (2) الأسحار على الجلنار (3) في الهواء والنار وجميع ما يحدث بين السماء والأرض من الآثار: وهذا الكتاب اختصره ابن منظور، وقد تناول فيه التيفاشي وصف الفصول الأربعة، ودلائل المطر والبرد والصحو، والبرق، والرعد، والغيم، والضباب، وقوس قزح، والسحاب، والأنواء، والرياح، والأعاصير، والزلازل، والخسوف والكسوف، والنا، ونار النفط، والصاعقة، ويعد هذا الكتاب أقدم موسوعة وافية في علم الأرصاد الجوية.

هـ التاريخ:

16-1- كتابان في تاريخ الأمم مفقودان.

17-2- كتاب مشكاة أفوار الخلفاء لم اطلع عليه .

18-1- كتاب في تفسير القرآن العظيم: يبدو أن الكتاب لا يزال مفقودا.

و- الشعر:

19-1- الديباج الحسرواني في شعر ابن هاني: وهو شرح على ديوان محمد بن هاني الأندلسي.

(1) الفلقشندي أبو العباس، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (القاهرة) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 77/4، إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين 94/1

(2) الطل أخف المطر وأضعفه، وقيل هو الندى، وقيل هو فرق الندى ودون المطر... أنظر ابن منظور، لسان العرب، تنسيق وتعليق علي شيري، (بيروت 1408هـ/ 1988)، دار إحياء التراث العربي ج. 8 ص. 191

(3) الجلنار: زهر الرمان (فارسية) منجد اللغة والأعلام ط: 20 دار المشرق بيروت 1969 قسم اللغة ص: 99

أحمد بن يوسف التيفاشي.....أ.إسماعيل سامعي

20-2-درة الآل في عيون الأخبار مستحسن الأشعار: ويبدو أنه كتاب ضم منتخبات من عيون الأشعار.

21-3- كتاب في علم البديع: ذكر فيه سبعين نوعاً من أنواع البديع.

22-4- نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب: توجد نسخة منه محفوظة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1333 ك، وهو كتاب أدب مجون .

23-5- الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة.

ز- الموسيقى:

24-1-متعة الإسماع في علم السماع: وهو كتاب في الموسيقى والرقص عند الشعوب في وقته موجود بخط المؤلف في خزانة محمد الطاهر بن عاشور بتونس (1)، وهذا الكتاب لم يرد في قائمة هدية العارفين.

ح-علم الأرصاد الجوية والفلك:

25-1-طل (2) الأسحار على الجلنار (3) في الهواء والنار وجميع ما يحدث بين السماء والأرض من الآثار: وهذا الكتاب اختصره ابن منظور. وقد تناول فيه التيفاشي وصف الفصول الأربعة. ودلائل المطر والبرد والصحو، والبرق، والرعد، والغيم، والضباب، وقوس قزح، والسحاب، والأنواء، والرياح، والأعاصير، والزلازل، والخسوف والكسوف، والنا، ونار النفط، والصاعقة. ويعد هذا الكتاب أقدم موسوعة وافية في علم الأرصاد الجوية .

ط- الموسوعة:

(1) التزكبي: الأعلام 273/1

(2) الطل أخف المطر وأضعفه، وقيل هو الندى، وقيل هو فرق الندى ودون المطر... أنظر ابن منظور: لسان العرب. تنسيق وتعليق علي شكري، دار إحياء التراث العربي بيروت 1408هـ/1988. ج: 8

ص: 191

(3) حيدر: زهر الزمان (فارسية) منجد اللغة والأعلام ط: 20 دار المشرق بيروت 1969 قسم اللغة ص: 99

26-1- فصل الخطاب في مدارك الحواس لأولي الألباب: يقول صاحب هدية العارفين أن هذا الكتاب في أربعة وعشرين مجلدا (1)، ويختلف معه ابن منظور حيث يرى أنه مجزأ في أربعين مجلداً. وأنه موسوعة كبيرة في مختلف العلوم، والتاريخ والآداب قدمها في القاهرة إلى صاحب محي الدين بن ندى الجزري القرشي أحد مشاهير أعيان القاهرة حوالي سنة 630هـ/1232م، ويذكر ابن منظور أنه سمع من والده أن التيفاشي صنف كتاباً أفنى فيه عمره واستغرق دهره، وأنه سماه: "فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب" (2).

وقد اختصر هذه الموسوعة ابن منظور وسمى الجزء الأول منها: "نثر الأزهار، في الليل والنهار" وقد عاب ابن منظور هذه التسمية على التيفاشي معللاً ذلك بأن من منن الله على نبيه أنه أتاه فصل الخطاب مع الحكمة كما يقول أنه بالكتاب حشو لا يفيد سوى في زيادة حجم الكتاب، وبذلك علل اختصاره له وقال عن ذلك: "ورغبت في إبرازة إلى الوجود... فأخذت زبده ورميت زبده... وبذلت في تنقيحه جهدي... وسميت هذا الكتاب: نثر الأزهار في الليل والنهار، وأطايب أوقات الأصايل والأسحار وسائر ما يشتمل عليه كواكبه الفلك الدوار" (3)، غير أن هذا الاسم لا يجلو من بلاغة وإيجاز الاسم الأصلي، ويعتقد حسن حسني عبد الوهاب أن هذه الموسوعة تتضمن بعض ما سبق ذكره من مؤلفات التيفاشي مثل الشفاء في الطب، وأزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ومتعة الإسماع في علم السماء، وتاريخ الأمم، وظل الأسحار (4).

(1) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين ص: 94

(2) مقدمة أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ص: 15 (نقلاً عن ابن منظور)

(3) نفس المرجع ص: 16. 15 (نقلاً عن ابن منظور)

(4) ح.ح.ع. الوهاب: ورقات 455/1

ي- منهاجه:

مما سبق ذكره عن حياة أحمد بن يوسف التيفاشي عن رحلاته، ومؤلفاته يتبين منهاجه العلمي حيث كان التيفاشي يسعى إلى الحقيقة باذلا الجهد والمال. وما الرحلات التي قام بها للوصول إلى أماكن استخراج المعادن. وتحويلها إلا دليل على ذلك. كما أنه كان أكثر تحفظا. وأكثر إمعانا في أخذ المعرفة عن طريق التجربة مبتعدا بذلك عن إيراد الخرافات والأساطير. وحتى أنه عندما كان يذكر بعضها فإنه ينسبها إلى أصحابها أو مراجعها ومصادرها ففي باب الفيروز يقول في تأثيره: " وذكر أرسطاطاليس أن كل حجر يستحيل لونه فهو رديء لصاحبه " فكان بذلك واقعيا محافظا على الأمانة العلمية حيث التزم بأمانة النقل فقال في مقدمة كتابه أزهار الأفكار في جواهر الأحجار: " ومع ذلك فمعظم الخواص المذكورة فيه مما جربته بنفسي أو ثقت بصحة النقل فيه عن غيري من المتقدمين فأحلت عليه مسندا قوله إليه..."(1).

وقد أمتاز بدقة الوصف ففي كتابه أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ترتيب علمي دقيق لما أورده من معادن فيقول في باب الماس: " ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه وهو في نفسه عسر الانكسار"(2). وعلى العموم فمنهج التيفاشي مبني على التجربة والملاحظة الشخصية الدقيقة. وقد عبر عن ذلك بنفسه فقال: " ومما جربته بنفسي - ويضيف: ومما اختبرته ووقفت عليه بالعمل - وقال أيضا: وقد وقفت على ذلك بالتجربة. وقال: وقد جربنا ذلك وفعلناه مرارا " (3).

كما كانت له قدرة على ابتكار المصطلحات العلمية المناسبة التي تعتمد على ركزتين أساسيتين هما: التعمق العلمي. والتضلع في اللغة. واتسمت لغة التيفاشي في كتاب أزهار الأفكار بتواتر المصطلحات الفنية الدقيقة فيقول مثلا عن بعض المعادن أن فيها ذكر وأنثى وهو يعني الرديء والجيد، ويقول أن بعض الألوان هذا " مغلوق " وهذا " مفتوح"(4).

(1) مقدمة أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ص: 17
(2) أحمد بن يوسف التيفاشي: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص
(3) نفسه: 39
(4) نفسه: